

أعلام التربية والتعليم في الإسلام :

أبو بكر بلعزمي

(٤٦٨ - ٥٤٢ هـ)

الإمام سعيد السريوه جي
مدير مكتف الموصل

وكان خاله يحدثهم عن علماء المشرق ، ومعاهدهم العلمية المختلفة ، وحلقاتهم الكبيرة المتنوعة التي كانت تعقد في رحاب المساجد ، وتهافت الناس على حضورها ، والانصات لما يدور فيها .

فشب أبو بكر وفي نفسه أمنية الرحلة الى المشرق ، ليأخذ عن علمائه ويحضر مجالس العلم المختلفة وينهل من خزائن الكتب الكثيرة .

وبعد انقراض دولة بني عباس ، نكب والده في اشبيلية ، فضاعت الدنيا في عينيه وعزم على أن يرحل مع والده أبي بكر الى المشرق ، وهو ما كانت تصبو اليه نفس أبي بكر .

فركب البحر يوم الأحد مستهل ربيع الأول سنة 485 هـ وكانت سن أبي بكر - اذ ذاك - سبعة عشر عاماً .

وفي عباب البحر غرقت السفينة التي كانت تقلهما وخرج مع والده ، منهوك القوى ، رث الحال ، لا يملك ما يسد به رمقه ، فانتهى الى منازل بنو كعب بن سليم ودخل على رئيسهم - وكان يلعب الشطرنج فتقدم أبو بكر منهم ، وأشار على رئيس القوم بما جعله يتفوق على خصمه فعظم في عينيه ، وظهر منه خلال ذلك من اطلاعه في الادب ما اعجب به الحاضرون فخلع عليه وعلى ابيه ، واعانتهما على مواصلة سفرهما .

وفي طريقه أخذ عن الشيوخ الذين اجتمع بهم ، وناقشهم في بعض المسائل ، فاعجبوا برأيه وعلمه . وفي بلاد المشرق زار اكبر المدن ، وأهم المراكز العلمية فيه ، مثل الاسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد والحجاز ، واتصل بأشهر العلماء والادباء .

الإمام الفذ القاضي ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافى قاضي قضاة كزرة اشبيلية .

نشأ في بيت عرف بالعلم والادب والفقہ ، كان أبوه باشبيلية بدرا في فلكتها ، وصدر في مجلس ملكها ، اصطفاه المعتمد بن عباد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ، فكانت داره مجمع أهل الفضل والبلاغة ، ومجلس أهل الادب والنباهة .

وكان خاله ابو القاسم الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني الاشبيلي ، (512-425 هـ) من علماء اشبيلية وفقهائها ، رحل الى المشرق ، واخذ عن علمائه وفقهائه ، وحج بيت الله الحرام ، وعاد الى بلده ، فقيهاً عالياً في روايته ، ذاكراً للاخبار ، قصده الطلاب واخذوا عنه .

كان أبو بكر ذكئ الفؤاد ، قوى الحافظة ، سريع الاخذ حفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين ، ثم ثلاثاً لضبط القرآن الكريم والعربية والحساب ، ثم درس غريب اللغة والشعر .

وكان له من مجلس والده خير معين ، ينهل منه ، يشفي غليله ويظفي ظمأه فيصفي لما يدور فيه من احاديث ، وما يجري من مناظرات ومساجلات في العلم والادب ، وما ينشد فيه من شعر ، وربما شارك أبو بكر بابداء الرأي في بعض ذلك .

وكان يتردد الى مجلس خاله مجلس الفقہ والحديث والخبار حيث يحظى بالاتصال بطبقة من الفقهاء والمحدثين ورواة الاخبار ، يتناظرون في المسائل الفقهية ، ويروون اصدق الاحاديث النبوية ، واجمل الاخبار المتعلقة بعلمهم .

واصحاب السراى ، كالاغاطى فى الاسكندرية ، وأبى الحسن الخلعى (المتوفى سنة 492 هـ) فى القاهرة ، وأبى الفتح المقدسى (المتوفى سنة 490 هـ) فى الشام وامام الحرمين (المتوفى سنة 498 هـ) بمكة المكرمة والتبريزى فى بغداد ، وقرأ عليه الادب .

وكان سروره كثيرا عندما التقى بالامام الغزالى ، فيحدثنا عن هذا ويقول : زد علينا - فى بغداد ذا تشحنند - يعنى الامام الغزالى - برباط أبى سعيد ، بازا، المدرسة النظامية ، معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى ، فمشينا اليه ، وعرضنا امنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التى كذا ننتشد واماننا الذى به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ، وتحققنا ان الذى نقل ائينا من الخبر على الغائب ، فوق الشاهد ، ، فلأزم الامام الغزالى ، وأخذ عنه ، واستفاد من علمه وتوجيهه .

حج الى بيت الله الحرام سنة 489 هـ ، ثم عاد الى بغداد مرة ثانية ، واتصل بعلمائها ومفكرها واخذ عنهم وناقشهم ، ثم رحل الى دمشق وبقي بها مدة ، ثم رحل الى الاسكندرية ، وتوفى ابوه فيها سنة 492 هـ وبعد أن شفى غليله ، قرر العودة الى بلده وقد حصل على قسط وافر من العلوم والآداب والآراء الطريفة التى اتحف بها بلده . عاد الى اشبيلية « بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة الى المشرق الا الباجى . »

فكان « من أهل التفنن فى العذوم ، والاستبحار والجمع لها ، متقدما فى المعارف كلها متضلعا فى أنواعها ، ناقدًا فى جميعها ، حريصا على اداء نشرها ، ناقب الذهن فى تمييز الصواب منها يجمع الى ذلك كله أدب الاخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتيال وكرم النفس ، وحسن العهد ، وثبات الود . »

وقد قال عنه الحجازى : « لو لم ينسب لاشبيلية الا هذا الامام الجليل ، لكان لها من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل . »

ذلك ان ابا بكر لم يكن ناقلًا او مقلدا لغيره - ممن أخذ عنهم فى المشرق والمغرب - بل كان فأحصا لكل ما يراه او يطلع عليه ، ناقدًا بصيرا يعلل الامور ومسبباتها ، يتحرى الحقيقة ، يناقش العلماء والادباء الذين ياخذ عنهم ، ويعرض عليهم ما يبدو له من وجهات نظره لذا رجع الى بلده بعلم غزير ، وآراء صائبة ، اقتبسها مما قرأه واطلع عليه فهو أحد المصلحين الذين

أبوا الجمود ، والاكتفاء بما كانوا عليه بل نجده يجاهر بضرورة تحكيم العقل فى كل الامرر ومناقشتها بالمنطق ، واتباع الاصلح منها .

كثيرهم الذين رحلوا من الاندلس والمغرب الى بلاد المشرق فأخذوا عن علمائه ، ودرسوا فى معاهده وعاد أكثرهم بعلم واحد او علوم معينة ، قصروا همهم عليها ، وأفادوا قومهم بما حملوه اليهم .

أما القاضى ابو بكر بن العربى ، فانه كان واسع الايق ، دقيق الملاحظة ، باحثا عن مختلف نواحي العلم والادب ، مربيا كبيرا ، وعالما جليلا ، أخذ مختلف العلوم والمعارف وتفقد كل طريف وقويم ، مما أبدعه المشاركة فى المشرق وقارنه بما هو عليه فى الاندلس والمغرب وأبدى آراء قيمة فى اصلاح ما عندهم واقتباس ما رآه حسنا فى المشرق وهو مصلح كبير وناقد بصير ، وواضع أسس نهضة علمية عملية .

وسنقتصر بكلامنا هذا على وجهة نظره فى المناهج الدراسية التى كان يتبعها المشاركة والمغازبة فى تعليم الصبى وتوجيهه ، وما يراه هو فى اتباعه منها .

اتصل بالمشرق بازباب التعليم ورجال التربية ، والمدرسين والفلاسفة وتفقّد الكتابات والمكاتب والمدارس ومعاهد العلم ، وناقش المعلمين والمربين فى الطرق التى يسلكونها فى التعليم والتهديب ، فوجد أن للمشاركة طرقا رشيدة ، وآراء صائبة فى سياسة الصبى ، وتعليمه وتوجيهه الى الخير والفضيلة والحياة العملية . وقد أعجب بهذا لانه وجد أول ما يتعلمه الطفل فى «الكتاب» هو القرآن الكريم وأمور الدين والكتاب والحساب . وقد فصل المربون سبب تقديم هذه على غيرها لاهميتها فى تقويم الطفل وتوجيهه الى التمسك بالدين الحنيف ، فالقرآن الكريم وأمور الدين، مما يحتم الشرح لتعليمه ، لئلا يفتقر الطفل عارفا بأحكام دينه ، مؤدبا شعائره ، متمسكا بفضائله ، سالكا طريق الخير والرشاد .

أما الكتاب والحساب فيتعلمهما بعد القرآن الكريم وأمور الدين لان «عمود صلاح الدنيا والدين ، انما يعتدل فى نصابه ، ويقوم على أسسه فى الكتاب والحساب ، هذه المواد الاربع كان يتعلمها الصبى فى الكتاب قبل غيرها .

وحدد المربون ما يتعلمه الطالب من كل منها مما يلزمه فى حياته العملية ، فان تجاوز المعلم ذلك شغل الطالب بأشياء هو فى غنى عنها .

فيعلمه من القرآن الكريم السور القصار ، التي
تعيه على أداء الصلاة ، ويعلمه اركان الدين الاسلامي
بصورة مجمله ، فلا يكثر عليه من القيل والقال ، وتضارب
الآراء ، اذ ذلك مما يعكر عليه صفو العلم ويولد الملل .
أما النحو فكانوا يقتصرون منه على ما يلزم التلميذ
في تقويم لسانه وقلبه ، قال الجاحظ : « فلا تشغل
قلبه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ،
ومن مقدار جهل العوام في كتاب ان كتبه ، وشعر ان
أنشده وشيء ان وصفه ، وما زاد على ذلك ، فهو
مشغلة عما هو اولي به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه ،
وعويص النحو لا يجرى في المعاملات ، ولا يضطر
اليه ... »

ويعلمونه من اللغة « صحيح الكتاب ، وتخلصهم
باللفظ السهل ، وراحة الكفاية ، ويحذره التكلف
واستكراه العبارة ، فان أكرم ذلك كله ما كان افهاما
للسامع ، ولا يحوج الى التاويل والتعقيب ، ويكون
مقصورا على معناه ، لا مقتصرا به عنه ، ولا فاضلا عليه ،
ويعلمونه من الخط كتابة الحروف وهجائها فان
أدنى طبقات الخط مع صنعة الهجا بلاغا .

أما الشعر « فينبغي أن يروى الصبي الرجز ، ثم
القصيد ، فان رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن ،
لان بيوته أقصر ، ووزنه أخف ، ويبدأ من الشعر بما
قيل في فضل الادب وعيب السخف ، وما حث فيه
على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ،
وغير ذلك من مكارم الاخلاق .

وكان المشاركة يعنون بتعليم الحساب ويقولون :
« انه بمثابة سلة الخبز ، اي يحتاجه كل أحد فعلى
المعلم أن يقتصر على تعليم الحساب الذي يدور عليه
العمل في السوق ، فيعتمد على حساب العقد دون حساب
الهند ، ودون الهندسة وعويص ما يدخل في المساحة ،
فهم لا يتجاوزون الكسور العشرة في تعليمه ، وهو ما
يحتاجه في حياته العملية .

فمنهج الدراسة الذي كان يتبعه المشاركة في تعليم
الصبي ، يؤهله لان يكافح في الحياة ، فيعطونه من
العلوم أكثرها نفعا ، وأيسرها مطلبا ، بطرق مبسطة ،
سهلة المآخذ . فيمكنه التوسع في الدراسة - بعد هذا -
وذلك بازتياد معاهد العلم ، وان شاء كافح في الحياة
العملية فيمازس فن الاعمال ما يروق له ويسهل عليه .
أطلع المريني الجليل أبو بكر بن العربي على هذا
المنهج المبسط ، السهل المثال الكبير الفائدة فاعجب به
وأخذ يقارن بينه وبين مناهج الاندلس والمغرب
وافريقية .

فأهل المغرب كانوا يعلمون الطفل القرآن الكريم
مع هجائه والقراءة الحسنة مع الترتيل ، وان تكون
القراءة لنافع ، لانهم يتبعون الامام مالكا الذي أخذ عن
نافع ولا يعلمونهم التغني بالقرآن الكريم .

وأما أهل الاندلس فكانوا يعلمون الصبي القرآن
الكريم ، فيقضى أربع سنين في تعلمه ، وثمانى سنين
في حفظه ، ثم يتعلم العربية وآدابها والموطأ والفقہ
المالكي ، ولا يهتمون بتعليم الحساب .

فوجد أن طريقة المشاركة أكثر فائدة ، وأنهم لا
يرحقون الطفل بأمر هو في غنى عنها ، ولا يحملونه
من الاعباء ما تجعله ينفر من التعلم ولا يحرمونه من
علوم هو في أمس الحاجة اليها .

لذا نجد - رحمه الله - يضع طريقة موحدة
للجميع ، تكون مفيدة للطالب .

وأول الامور التي اهتم بها ونبه الناس الى اتباعها ،
هي طريقة تعلم القرآن الكريم التي كانت عليه في
الاندلس والمغرب ، فان الصبي كان يقضى سنين من
حياته في تعلمه وهجائه وحفظه ، ويبقى محروما من
أمر أخرى تفيده ، بينما كان أهل المشرق يقدمون
تعليم الخط والعربية والحساب على حفظ القرآن الكريم
على أن معظم الطلاب كانوا يحفظون منه ما يعينهم على
أداء الصلاة ويستمترون بدراساتهم في المعاهد العلمية ،
فيدرسون التفسير والحديث واللغة والحكمة ، ولربما كان
أحدهم اماما في قومه ، وهو لا يحفظ القرآن الكريم ،
بل انه المرجع في تفسيره ودقائقه واحكامه ، وكل ما
يتعلق بعلم القرآن الكريم ، وعلى هذا نجد الامام ابن
العريج يحبذ هذه الطريقة ، وينتقد ما عليه قومه
فيقول : « وللقوم - اي المشاركة - في التعليم سيرة
بديعة ، وهي أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب ،
فاذا عبر المكتب أخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية ،
فاذا حذقه كله او حذق منه ما قدر له خرج الى المقرئ ،
فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب ، أو
نصفه ، أو حزبا . خرج الى ما شاء الله ممن تعليم او
تركه . ومنهم - وهم الاكثر - من يؤخر حفظ القرآن
ويتعلم الفقه والحديث ، وما شاء الله فربما كان اماما
وهو لا يحفظه ، وما رأيت بعينى اماما يحفظ القرآن .
ولا رأيت فقيها يحفظه الا اثنين . وذلك لتعلموا ان
المقصود حدوده لا حروفه وعلقت القلوب اليوم بالحروف
وضيعرو الحدود ، خلافا لامر رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - لكنه انفاذ لقدرة الله وتحقيق لوعده رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - وتبيين لنبوته ، وعضد
لمعجزته .

العرب العاربة ، ويعرفه العوامل في الاعراب ، وشيئا من التصريف . ثم يحفظه اذا استقل واستوفى العشر الثاني من كتاب الله - وهو أمر وسط متساو بين أهل المشرق والمغرب ، ثم يحفظه سنن أصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي نحو من ألفى حديث في الابواب التي نقحها البخارى ومسلم والتي هي عماد الدين . (I)

فالامام ابن العربي يحنذ طريقة التدرج في تعليم الصبى وعدم ارهاقه بالتحفيظ والتكرار ، حتى اذا ما نهض ، واطلع على كلام العرب ، يعلم القرآن الكريم فيقبل عليه بشوق زائد ، وفكر حاضر وقد شرح سبب تقديم تعليم الشعر والعربية والحساب على حفظ القرآن الكريم ودراسته ، فيقول : « لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه ، وتقديم العربية في التعلم ضرورة فساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن به حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة »

هذا هو المنهج المبسط الذى اقترح ابن العربي أن يسير عليه قومه ، في تعليم اولادهم ، تعليقا يناسب أعمارهم وقابلياتهم ، ويؤهلهم للدين والدنيا .

وله آراء اخرى لا يتسع المقال لبسطها ، وهي كثيرة في رحلته ومؤلفاته فهو من اعلام الاندلس ، العاملين الذين أحبوا أن ينقلوا الى بلادهم كل مفيد ونافع من حضارة المشاركة .

الديوه جى - الموصل

فهو يتالم جدا من عمق الطريقة التي يسيرون عليها في تعليم كتاب الله عز وجل ، وازهاق الطفل عدة سنوات فيقول : «ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبى بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه » .

ونجده في كتابه « العواصم من القواصم » يندد بقومه أيضا في تحفيظ المتون والمطولات واضاعة وقت الصبى بالاقوال المتضاربة حيث قال : « فصار الصبى عندهم - اذا عقل - فان سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فاذا أخذوه نقلوه الى الادب فاذا نهض منه حفظوه الموطا ، فاذا لقته نقلوه الى المدونة . ثم ينقلونه الى وثائق ابن العطار ، ثم يختمون له باحكام ابن سهل . فقال «قال فلان التطيلي ، وفلان المجريطى ، وابن مفيث - لا أغاث الله نداء ، ولا انسا له رجاء - فيرجع القهقرى ، أبدا الى الوراء - على أمه الهاوية » . فهو يؤيد ما يذهب اليه المشاركة ، في تبسيط العلم للطالب ، وتقديم الأهم النافع على غيره ، واعطاء الطالب من كل علم ما يفيد في حياته العملية ، ولا يرهقه وقت التعلم ، فيبعثونه عن المجادلات غير المجدية ، وتضارب الآراء ، وكثرة القيل والقال ، وعدم اكرامه على حفظ ما لا يفيد من المتون .

وقد اقترح أن تكون مناهج الدراسة معتدلة تناسب قابليات الطلاب ، وما يحتاجونه ، فقال في هذا : «والذى يجب على الولي في الصبى اذا كان أبا - او وصيا او حاضنا والا الامام - اذا عقل - أن يلقيه الايمان ويعلمه الكتابة والحساب ، ويحفظه أشعار

أهم المصادر التي اعتمدنا عليها

- | | |
|--|--|
| 6 - مطمح الانفس ومسرح التانس - الفتح بن خاقان مصر I25I (71-72) | I - كتاب الصلة - عبد الملك بن بشكوال - مجريط I882 م. (: 52I-522) |
| 7 - وفيات الاعيان - ابن خلكان مصر I2IO (I : 489) | 2 - المغرب في أخبار المغرب - لابن عذارى - نشره شوقى الضيف - القاهرة I952 (I : 25I) |
| 8 - شذرات الذهب في اخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلى (4 : I4I) | 3 - آداب المعلمين - لسحنون - نشره الاستاذ عبد الوهاب حسن حسنى - تونس I248 . |
| 9 - مقدمة ابن خلدون - مصر I222 (209-2IO) . | 4 - كتاب المعلمين للجاحظ - نبذة منه نشرت على هامش الكامل للمبرد - مصر . |
| IO - التربية والتعليم في الاسلام - لكاتب المقال (مخطوط) وغيرها من المصادر الأخرى . | 5 - نفع الطيب - للمقرى طبعة دار المأمون (6) : I05-58 |

(I) ثم زاد على هذا علوما أخرى اذا استمر الطالب في دراسته .